جهود المدرسة الاستشراقية الألمانية في دراسة اللغة العربية
– دراسة مقارنة –

The German Oriental School Efforts in the Study of Arabic Language -a Comparative Study-

ط.د/ سيف الدين شاعة sifeddine.chaa@univ-tiaret.dz

ط.د/ أحمد دهلي ahmed.dahli@univ-tiaret.dz

جامعة ابن خلدون – تيارت (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2022/01/01 **تاريخ القبول: 2022/01/23**

ملخص:

كانت ولا تزال الثقافات الشرقية محط اهتمام الغرب، وذلك لما امتلكته من خصائص ميّزت هذه الشعوب وصنعت لها فرادتها، ومن أبرز ميادين الاهتمام اللغة العربية باعتبارها حمولة ثقافية، حيث انكبّ على دراستها والبحث في مميزاتها مجموعة من الباحثين من مدارس استشراقية مختلفة، جعلوا منها سندا وهدفا لتحقيق مآرب متنوعة، ومن بين أهم هذه المدارس المدرسة الألمانية، والتي اعتمدت على جملة من الأدوات البحثية، بما فيها المنهج المقارن. مما سبق تتأسس للباحث جملة من التساؤلات أهمها:

ما هي مميزات الدراسة الاستشراقية الألمانية؟ ما هو المنهج المعتمد؟ وكيف تم دراسة اللغة العربية ؟ ما هي الجهود والنتائج المحققة من الدراسة؟

الكلمات المفتاحية: الدراسات الاستشراقية، اللغة العربية، المدرسة الألمانية، المنهج المقارن.

Abstract:

Eastern cultures were have been the focus of the West's attention, due to the characteristics they possessed and that distinguished the peoples and made them unique. One of the most prominent fields of interest is the Arabic language as a cultural baggage that inspired researchers from different oriental schools to study it and to search in its features, making it a support and a target to achieve their goals Among the most important of these schools is the German School,

which relied on a number of research tools based on the comparative method. From the above, a number of questions arise for the researcher, the most important are: What are the advantages of the German Orientalist study ? What is the approved curriculum, and how was the Arabic language studied ? What are the efforts and results achieved from the study ?

***keywords**:* Oriental studies, Arabic Language, German school, Comparative Method.

تكمن مشكلة البحث في أهمية الاستشراق بعدما أثار جدلا نتيجة ارتباطه بالحركة الاستعمارية، جعلنا هذا نبحث عن حسنة من حسناته وقد اخترنا المدرسة الألمانية لأنها غنية بالدراسات في مختلف الميادين ولأنها تتصف بالموضوعية في الطرح، كما كانت اللغة العربية موضوعا خصبا جذب المستشرقين الألمان وأفسح لهم المجال ليدلوا بآرائهم.

تهدف الدراسة إلى معرفة نماذج من أعلام الاستشراق الألماني، أيضا التعرف على المنهج المقارن وكيفية تطبيقه على اللغة والفائدة من ذلك، أتبعناه بأمثلة توضيحية كانت اللغة العربية فيها محلّ دراسة، ثم قدمنا نقدا للمنهج المقارن اللغوي.

تتجلى أهمية الدراسة في حصيلة ما تم التوصل إليه وأهم النتائج المترتبة عن فهم اللغة العربية من طرف الدارسين الألمان خاصة ما تعلق بالنحو والصرف العربيين. تحديد بعض خصائص وسمات اللغة العربية وفق ما تتشاركه مع لغات سامية أخرى مشابهة لها.

تبيان الحالات التي يجب ولا يجب فيها تطبيق المنهج المقارن والنصوص التي يمكن أن تصلح لعملية المقارنة.

توطئة:

اختلف المفكرون في البداية الحقيقية للاستشراق يقول في هذا السياق المستشرق الألماني (رودي باريت): «لعل بداية اتصال الغربيين بالدراسات العربية والإسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر، ولكنها كانت محاولات فردية يقوم بها بعض العلماء من ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 1143، بتوجيه من الأب بيتروس فينيرابليس رئيس ديوان كلوني

باسبانيا رئيس ديركلوني باسبانيا، أو وضع أول معجم لاتيني عربي، أو محاولة رايمندوس لالوس في القرن الثالث عشر لإنشاء كرسي لتدريس اللغة العربية.»[1] فاتجهت العديد من أنظار الباحثين الغربيين إلى المجتمعات الشرقية وبخاصة إلى الحضارة الإسلامية، بعد النهضة الأوروبية التي مست جميع مجالات الحياة وتحرر الفكر الغربي، ازدهرت أكثر حركة الاستشراق يذكر جارودي «أنه قبل نهايه القرن التاسع ميلادي، ترجمت إلى العربية مؤلفات أرسطو وجالينوس وأفلاطون وبطليموس وأرشيمدس، وكذلك ميكانيكا هيرون وكتاب (الأشكال القمعية) وهي من سنه 813– 833م وهي فترة لم تكن أوروبا قد تعلمت القراءة»[2] اهتم العرب بإنجازات غيرهم من الأقوام والأمم فترجموا لأهمّ أعلامهم وحاولوا أن يستفيدوا من إبداعاتهم، خاصة في عصر الضعف والأمية الذي ساد أوربا في تلك الحقبة، قدر المستشرقون هذه الأعمال الفكرية التاريخية، حرصوا على المخطوطات العربية «فجمعوها أو ساعدوا على جمعها بهمّة لا تعرف الكلل، ولئن اقتنوا بعضها بالأثمان البخسة، ومنها ما حُمل حملا إليهم في عقر دارهم، فقد طلبوها بالأسفار الطويلة والنفقات الباهضة في مختلف الأصقاع، حتى توفر لديهم من المخطوطات العربية وحدها أعلاق نفيسة تُعد أكثرها من النوادر والأمهات التي خلت منها مكتباتنا»[3] حينما أدرك الغربيون أهمية المخطوطات وفائدة هذا الزخم الفكري اشتغلوا بجمعه وطلبوا بعضه عبر السفر والترحال، والبعض الآخر بالمال والاقتناء حتى توفر لديهم أعداد هائلة ورفيعة من أمهات الكتب، منها ما انعدم في مكتباتنا العربية اليوم.

تنوعت الغاية من الاستشراق حسب المنفعة وهدف كلّ دولة وفق ما يخدم مصالحها في هذا المقال سنركز على ما خدم البحث العلمي، ونستشهد بما جاء في كتاب (تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره) لمؤلفه (عبد المجيد دياب)، من بين الأهداف يقول: «كالإفادة من الجوانب المشرقة في تاريخ الشرق، كالوقوف على تاريخ العلوم التي ازدهرت في رحاب الحضارة الإسلامية من أقدم المدارس التي عرفت بذلك في أوروبا مدرسة "مونبيله" التي أسست سنه 1220 وعلّمت العربية بوصفها لغة مهمة في مجال الطب، أو الوقوف على حلقات غامضة من تاريخ الحضارة الأوروبية ولكنها تتضح من خلال معرفتهم بتاريخ الحضارة الإسلامية، ومن ذلك محاولتهم الوقوف على تاريخ اليونان والرومان بالتعرف عليها

من خلال المصادر الإسلامية، المكتوبة أو المماثلة في صورة آثار قديمة»[4] لا يمكن أن نفهم الحضارة الإنسانية إن فقدنا حلقة من حلقات سلسلة التاريخ المتكامل للبشرية، تحيلنا الحضارة الإسلامية إلى محطات معرفية فكرية وجغرافية تفسر الغموض الذي مسّ بعض جوانب الحضارة الأوروبية أو الرومانية أو غيرها، فالاستشراق علم كما نعرفه اليوم يعد «نتيجة لجهود أجيال عديدة من علماء أوروبيين حاولوا التعرف على حضارة الشرق وأعمال أبنائه، ودراسة تراثه في مختلف مجالات المعرفة»[5] يُعرف (محمد فاروق النبهان) في كتابه (الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره) أنّه «مدرسة فكرية ذات خصائص ودوافع وغايات، وليس من اليسير على أي باحث أن يحيط بأسرار هذه المدرسة وأن يستكشف كل خطواتها، وأن يلم بأهدافها، فهي وليد صراع طويل بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، وهي نتاج تجربة حية من تناقض وتباين بين عقيدتين وثقافتين وحضارتين»[6] أي أنّ الاختلاف العقائدي والثقافي كان أحد الأسباب التي أدت إلى الاهتمام بالشرق وأسراره وأدق تفاصيله للانتفاع منه ومما قد يرجح كفة القوة لدى الدارسين والمتطلعين لبناء مجتمعاتهم. يرى (محمد قدور تاج) في كتابه: (الاستشراق ماهيته فلسفته مناهجه) على أنّه: «بتعبير موجز: هو دراسة يقوم بها الغربيون لتراث الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتاريخه ولغاته وآدابه وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداته. أما المستشرق فهو ذلك الغربي الذي يدرس تراث الشرق وكل ما يتعلق به وبعلومه .. وعليه فالاستشراق دراسة يقوم بها غير الشرقيين لتراث الشرق»[7] وجاء في كتاب (المنتقى من دراسات المستشرقين) لصلاح الدين المنجد: «أنّ المستشرقين طرقوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا .. متبعين في دراساتهم وأبحاثهم طرق البحث المنهجي المنظم»[8] فالمستشرق هو باحث متخصص في علم من العلوم، تقوم دراسته على أسس منهجية، يتم تسخير جهده البحثي لأهداف فردية وجماعية واللغة العربية أحد مفاتيح ثقافة الشرق الإسلامي وعلومه يجب الإحاطة بها لفهم علوم وآداب الشرق.

سنحاول في هذا البحث أن نُقدم جهود بعض المستشرقين في خدمة اللغة العربية خلّد أسماءهم التاريخ ينتمون إلى المدرسة الألمانية، كانت بحوثهم منطلقا لعديد الدراسات لكن قبل ذلك يجب أن نُعرج على الاستشراق الألماني والمنهج المقارن.

1- المدرسة الاستشراقية الألمانية:

يرى دكتور (البرت ديتش) «أن العلماء الألمان لم يشتركوا في الدراسات العربية اشتراكا فعليا إلا بعد توغل الأتراك في قلب أوروبا، فقام عالم ألماني يدعى كريستمان (ت1613) بأول محاولة لتدريس اللغة العربية ونشرها. ووضع فهرسا مختصرا لمجموعة من المخطوطات اقتناها أحد النبلاء الألمان، كما ألف كتيبا لتعليم كتابة الحروف العربية، وجمع بعض آيات من الإنجيل المترجمة إلى العربية للتمرن على القراءة، وأعد لذلك الحروف العربية في قوالب من الخشب للمطبعة، وقد عين (كريستمان) أستاذا بجامعة هايدلبرج عام (1585) واقترح إنشاء كرسي للدراسات العربية لبحث الفلسفة والطبّ ومصادرهما العربية»[9] يتضح من خلال هذا القول أنّ الاهتمام الفعلي باللغة العربية كان بعد انتشار نفوذ الأتراك في أوروبا دفع هذا بالألمان إلى التساؤل عن أسرار قوّة الأتراك الذين أخضعوا الدول الأوروبية، ولن يتأتى لهم ذلك إلا بمعرفة علومهم وثقافتهم وتوقيع اتفاقيات معهم وأوّل خطوة كانت لتحقيق ذلك هي الاعتناء باللغة العربية والتنقيب في أسرارها.

لمّا تحرّر الفكر الغربي من سيطرة الكنيسة وأدرك أهمية الانفتاح على العلوم وتطويرها زاد الحرص على تعلّم اللغة العربية وترجمة آثار ومفكري أعلامها «ترجمت مخطوطات أدبية أو نقلت أقسام منها إلى الألمانية من قبل باحثين ومستشرقين في ألمانيا، منها على سبيل المثال "كتاب الأدب الصغير" لابن المقفع، الذي ترجمه أُ. ريشر O.recher عن الطبعة العربية للمخطوط الأصلي الذي حققه أحمد زكي باشا، وصدر في القاهرة (1329هـ/1911م) لكن الترجمة لا تحتوي شروحا أو تعليقا، كما ترجمت "مختارات من يتيمة الدهر" للثعالبي ومن "المزهر" للسيوطي وغيرهما ... وضمّ الكتاب إلى جانب ترجمة النصوص الأصلية باللغة العربية ... من الكتب اللغوية كتابا مهما هو "المعجم في بقية الإشيا" لأبي هلال العسكري»[10]، لم تكن المدرسة الألمانية كباقي سليلاتها من مدارس الاستشراق بل «تميزت المدرسة الألمانية بالجدية والعمق والدّقة، ومن الصعب تجاهل دورها في مجال البحث والدراسات، وبالرغم من أنّها بدأت في وقت متأخر، فإن المستشرقين الألمان أكدوا أصالة هذه المدرسة وقوتها وقدرتها على التصدي لقضايا فكرية هامة»[11] جعلت هذه الصفات

والخصائص العلمية منها مرجعا ومُنطلقا يُرجع له في الدراسة من طرف الباحثين كل حسب تخصصه ومجاله، أمّا في القرن العشرين نذكر من المشتغلين بالاستشراق اللغوي العربي «المستشرق هانز فير Wehr, Hans الذي صنف معجما للغة العربية الفصحى في العصر الحديث، وقدم تلميذه شريجلي Schregle, Götz معجما آخر (ألماني/ عربي). ويوهان فيك Fück, Johann الذي ترجم كتاب "العربية" للمرحوم الأستاذ دكتور عبد الحليم النجار ويعدّ من أفضل الدراسات في اللغة واللهجات والأساليب، وكذلك كتابه عن الدراسات العربية في أوروبا Die arabische studien in Europa»[12] هؤلاء ليسوا سوى غيض من فيض سخروا حياتهم لخدمة اللغة العربية واجتهدوا في البحث عن خباياها وغيرهم كثير منهم من تُطرق له بالبحث ومنهم من لا يزال بعد.

2- المنهج المقارن:

يدلّ المنهج في معناه اللغوي على: «الطريق الواضح، والمناهج كالمنهج في المعنى، وفي التنزيل ﴿لِكُلٍ جَعَلنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سورة المائدة الآية: 48.

والمنهج في اصطلاح الباحثين: يدّل على طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم، هو طريق كسب المعرفة أو هو علم التفكير»[13] المنهج عبارة عن مصطلح «ترجمة للكلمة méthode ونظائرها من اللغات الأوروبية الأخرى»[14] ويمكن القول إنّ المقارنة «في أوسع معانيها إذن تعني ذلك النشاط الفكري الذي يستهدف إبراز أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر التي تجري عليها المقارنة، ومن ثم فإنّ المقارنة تقتضي بالضرورة وجود سمات مشتركة بين الظواهر محل المقارنة، إذ لا مقارنة بين الظواهر تامة الاختلاف والظواهر تامة التشابه»[15]. تعتمد المقارنة على «المقاربة والمطابقة بين النصوص وتحليل النصوص إلى عناصرها الأولى وإرجاعها إلى أخرى سابقة لها»[16] انبثق المنهج المقارن عن المنهج التاريخي، يقول محمد قدور تاج: «ليس المنهج المقارن، إلا امتدادا للمنهج التاريخي في أعماق الماضي السحيق، وينحصر في نقل منهج التفكير، الذي يطلق على العهود التاريخية إلى عهود لا نملك منها أية وثيقة ... وعليه فإن موضوع "علم اللغة المقارن" هو دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية في اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية

واحدة، أو فرع من أفرع الأسرة اللغوية الواحدة»[17] اعتماد المنهج المقارن بين الظواهر اللغوية المتشابهة التي تنتمي إلى أسرة واحدة يمكننا من تحليل الظواهر والخروج بنتائج تمكننا من تفسير وفهم المتشابه وإزاحة الغامض فيما يتعلق بالأصوات والصرف والنحو ...

نجمل القول، إنّ المنهج المقارن هو: «تلك الخطوات التي يتبعها الباحث في مقارنته لظواهر محل البحث والدراسة، بقصد معرفة العناصر التي تتحكم في أوجه التشابه الاختلاف في تلك الظواهر، وهو يستهدف التفسير العلمي عبر كشفه للعلاقات بين المتغيرات... والمقارنة في رأي الأغلبية تجري بين لغتين أو أكثر، من فصيلة أو كتلة لغوية واحدة، كالفصيلة السامية (Semitic Family) وما تفرع منها من لغات أو الفصيلة الهندو–أوربية (Indo European Family) من حيث الأصوات، وتشكيلاتها وبناؤها ومخارجها، وصفاتها، ووظائفها كذلك دراسة البناء الصرفي وحدوده والبناء الدلالي والقواعدي المعياري والعروضي والبلاغي"»[18]. علم اللغة المقارن يمكننا من فهم المتغيرات التي طرأت على شكل وبناء الكلمة وما تفرع منها وأيضا ما انتقل إلى لغات أخرى وكيف تم التقعيد والتقنين في العموم للغة، ساهم المنهج المقارن في خلق فرضيات والوصول إلى نتائج مهمّة في ميدان البحث اللغوي، كما أنّ مشكلة أصل اللغة وتطورها والتغيرات التي طرأت عليها جعلت علماء اللغة يسلكون هذا المنهج ليبحثوا عن إجابات لتساؤلاتهم فيما يخص اللغات التي تحمل نفس الميزات والصفات المشتركة.

3– الفائدة من دراسة المقارنة:

تؤدي مقارنة هذه اللغات السامية باللغة العربية إلى: « استنتاج أحكام لغوية، لم نكن لنصل إليها، لو اقتصرت دراستنا على العربية فحسب، ونفسر بهذا الأمر سرّ تقدم المستشرقين في دراستهم اللغة العربية، ووصولهم فيها إلى أحكام لم يُسْبَقُوا إليها؛ لأنّهم لا يدرسون العربية في داخل العربية وحدها، بل يدرسونها في إطار اللغات السامية»[19] نجد أيضا أنّ: «علم اللغة المقارن (comparative linguistics) يُعني بتحديد الخصائص المشتركة بين مجموعة اللغات الشقيقة، وصولا إلى تحديد معالم اللغة الأم لهذه اللغات ... توضع فيه مجموعة من اللغات عادة في أشكالها المؤكدة القديمة، بعضها إلى جانب بعض

بقصد الوصول إلى الروابط والعلاقات بينها، التي تمكن الباحثين من فرض صورة للغة الأم التي تفرعت منها هذه اللغات»[20] فالإحاطة بالخصائص اللغوية التي تنتمي لنفس الأصل يُمكن الباحث من معرفة اللغة الأم الأصل واللغات التي تفرعت عنها وأيضا التغيرات التي طرأت عليها، وكان من أهم نتائج هذا المنهج ما يلي:

«– إنتاج مجموعة من الكشافات القاموسية الاشتقاقية للمجامع اللغوية الكبيرة مثل:قاموس (فالد بوكرني Walde Pokorny) الذي كتبه باللغة الألمانية عن اللغات الهندو–أوربية. وقاموس (Skeet) الاشتقاقي في اللغة الانجليزية، وقاموس "Dorling Buck" في المترادفات الرومانية الهندو–أوربية، وقاموس "Diez" في اللغات الرومانية وقاموس "Myer - Lubke"»[21] هذه المعاجم والقواميس إحدى النتائج الإيجابية لمقارنة اللغات المتشابهة والتي تمكننا من معرفة اللغة وجذورها التاريخية وبعض قوانينها وتسهل علينا تَدرِيسها وتَعَلُمَهَا.

4– نماذج تطبيقية:

تطرق الاستشراق الألماني للعديد من نماذج المقارنة نذكر منها:

مقارنة بروكلمان لـ "إنَّ" العربية مع مثيلاتها في اللغة السامية، يقول الدكتور (إسماعيل أحمد عمايرة) في كتابه (بحوث في الاستشراق واللغة) «وأحسب أن (بروكلمان) على صواب في مقارنته بين hén في المهرية، و hen في الآرامية، وen في السريانية، و"إنّ" في العربية، و hinné في العبرية بوصفها جميعا تلتقي في أصل استعمالها على معنى واحد، فقد جعل "بروكلمان" من المعنى الإشاري التأكيدي أصلا جامعا يمكن أن يُردَّ إليه الأصل في استعمالها كلها، فقد استخدمت هذه الأداة في كثير من اللغات السامية بمعنى "أُنظر"، ومن هنا يأتي المفهوم الإشاري، كما جاءت بمعنى "حقا"، أو: "من المؤكد"، ولا شك في أنّ وجه الشبه قائم بين enma الأكادية و hn الأوغاريتية، و hinne العبرية، و"إنَّ" العربية، وhen العبرية، و in' الآرامية. ومبعث ذلك تطابقها في هذه اللغات مبنى ومعنى، ولا نستبعد أن تلتقي نونا التوكيد الخفيفة والثقيلة في الأفعال، مع "أَنْ" و"أَنَّ" في أصل واحد، سوى أنّ العربية قد ميزت بين الاستخدامين: الاسمي والفعلي بوضع الكلمة التأكيديّة في البداية في التركيب الاسميّ، نحو: إنَّ زيدًا كريم، وفي النهاية مع التركيب الفعليّ الذي اقتضى تَحَوّل

الهمزة إلى الوصل بدلا من القطع، تيسيرًا. نحو: تَكتُبنّ. وتحوّل همزة القطع إلى وصل معروف، في نحو: أَنْ، قَد، أَصْبَحَ»[22] حسب ما أقرّه بروكلمان "إنّ" في اللغة العربية تلتقي مبنى ومعني مع مثيلاتها في اللغات السامية وقد حملت معانٍ في تركيب الجمل مثل: (أُنظر حقا، من المؤكد)، لكن ما ميز العربية عن باقي اللغات في المبنى هو أن الجملة الاسمية تكون "إنّ" أو "أن" في أوّل الجملة، أما في الجملة الفعلية تكون نون التوكيد في آخر الفعل وهمزة القطع تتحول وصلا كذلك مع: أنْ، قَدْ، أَصبَحَ.

أما صيغ الفعل المجزوم والفعل المضارع يرى المستشرق الألماني بيرجشراسر « إن لمسألة الفعل المجزوم والفعل الماضي وجها آخر في ضوء الدراسات السامية المقارنة، فالفعل المجزوم في العربية تقابله صيغة تدل على الماضي في الأكادية Prateritum نحو كلمة iprus (فَصَل قَطَع) وقد ظل من دلالة المجزوم على الماضي في العربية صيغة (لو يفعله)، أما الفعل الماضي في العربية فهو مُتحدّر – كما هي الحال في لغات سامية أخرى، كالكنعانية والعبرية والآرامية– من صيغة اسم الفاعل stativ الأكادية مثل paris (paris)، وقد استخدمت صيغة الماضي في العربية على نحو "ما" في أخواتها الحبشية والعبرية والسريانية في الجملة الشرطية، فوقفت بذلك إلى جانب صيغة الفعل المجزوم (ذي الدلالة على الماضي في الأصل).

وقد عبرت الأكادية عن فعل الشرط بما يدل على الماضي، أما فعل الجواب فعبرت عنه بما يدل على الحاضر أو المستقبل، ... وأما صيغة المضارع Priasens الأكادية iparras فلا يوجد لها نظير في العربية، فما يقابل المضارع المرفوع imperfekt في العربية هو صيغة iparras، ولذا فقد نهضت صيغة المضارع المرفوع العربية imperfekt بما يقوم به المضارع الأكادي Prisens.

خلاصة هذا الرأي أنه يلتقي وما قرره النحاة العرب، وهو أن الفعل المجزوم هو الأصل في جملة الشرط، بيد أنه يفترق عنه في تفسير ذلك. فالنحاة يسعون إلى "علّة" تفسر ظاهرة الجزم، فاعتبروه أصلا، وردوا ما سواه إليه على المحل، باعتباره فرعا»[23] مما سبق فإنّ الفعل المجزوم في العربية تقابله صيغة تدل على الماضي في الأكادية وكذلك صيغة ("لو يفعله" مثل: "لو يصنعه") في العربية تحمل دلالة الزمن الماضي، أما الفعل الماضي المتحدّر (يقع

الضمير فيه مفعولا به كأن يتصل الفعل بضمير المخاطب)، فلا يصح قول: (إضْرِبكَ) بل (إضْرب نفسك) لأنّه من أساليب العرب أن لا تضع هذه الضمائر مفعولا به حينما يكون الفعل واقعًا على من يعود عليه الضمير، وهو كذلك الأمر في اللغات سامية الأخرى كالكنعانية والعبرية والآرامية، كذلك "ما" في الجملة الشرطية حملت نفس خصائص الفعل المجزوم نحو قولنا: (ما تَدخرهُ ينفعكَ)؛ فعل الشرط يدل على الماضي وجواب الشرط يدل على المضارع أو المستقبل وهي نفسها في اللغة الحبشية والعبرية والسريانية، أما صيغة المضارع المرفوع في العربية كصيغة المضارع الأكادي Prisens.

أيضا (ريمشنايدر) يرى أنّ الأفعال المضارعة في اللغات السامية تلتقي في أمور وتختلف في أخرى، مثال ذلك: «هو حذف همزة التعدية في "أفعل"، وهي التي تقابل الهاء في وزن "هفعيل" في العبرية. وقد سقطت الهاء من العبرية، فقيل: "يفعيل" بدلا من: "يهفعيل" ولسنا هنا بصدد الحديث عن أصل الهمزة العربية هذه، وحسبنا أن نشير إلى أن علماء الساميّات يردونها تاريخياً إلى الهاء، ومن بقايا استعمالها في العربية، أن يقال: هراق، وقد آلت إلى: أراق، و: هنار التي آلت إلى: أنار. ومن ذلك: أزرف وهزرف. والهاء والهمزة حرفان حلقيان يتبادلان»[24] طرق بروكلمان أيضا تلك الفروق المتفاوتة التي وجدها على مستوى الكلمة «وقد تمكن علم الساميات من الوقوف على جوانب من هذا التطور، فما تزال العربية تحتفظ بمعالم منه، تمثل الصورة القديمة وما آلت إليه؛ ففي العربية صيغة "أَفْعَل مثل: أكرم، أراق وأعطى ... يقرر علم الساميات أن هذه الصيغة، قد تطورت عن صيغة أخرى أقدم منها، وهي : هَفْعَلَ بالهاء ، ويقابلها بالعبرية هَفْعِيل، ولم يعد من هذه الصيغة: هَفْعَل، سوى بقايا قليلة نحو: هراق، وهراد، وهنار– وهي لغات في: أراق، وأراد، وأنار»[25] هناك من العلماء من يَرُدّ حرف الهمزة إلى أن أصلها هاء لأنهما حرفان حلقيان يمكن أن يتبادلان، كما أوردنا ذلك في الأمثلة السابقة.

وعودة إلى المستشرقين: "بروكلمان وبرجشتراسر" في صيغ الصرف «فالأول قسم الصرف على قسمين كبيرين: الاسم والفعل، وعرض الصرف العربي بالمنهجين: المقارن، والتاريخي مع توصيف جديد، مثل جعله الضمائر وغيرها من المبنيات من موضوعات الصرف العربي.

وشرع يشتق الأفعال (يُصرّفها) لا بحسب دلالتها الزمنية (ماض، ومضارع ، وأمر)، أو بابها نحو (فَعَلَ، فَعُلَ، فَعِلَ) بل بحسب فائها أو عينها، أو لامها، إذا ما كانت نونا، أو همزة، أو واوًا، أو ياءً، أو غيرها، وبحسب ما ترتبط به من سوابق (أحرف المضارعة) أو لواحق، مثل الضمائر المتصلة بالفعل الماضي.

أما برجشتراسر، فيكاد يكون منهجه قريبا من منهج بروكلمان، لولا بعض الفروق التي أملاها اهتمام كل واحد منهم إنّ موضوعات الصرف عند برجشتراسر مقسمة على: الضمائر، وأبنية الفعل، وأبنية الاسم، وما يجانسها. وأقسام الضمير عند برجشتراسر هي نفسها عند بروكلمان. أما أبنية الفعل، فهو يدرسها، ومعانيها، واللواصق التصريفية، وصوغ الماضي، والمضارع، والأمر»[26]. قسم بروكلمان الصرف إلى وحدتين أساسيتين هي: الاسم والفعل وجعل الضمير من ضمن مواضيع الصرف العربي، كما صرّف الفعل (فعل) حسب فائه وعينه أو لامه مثل: عَلَّمَ، عُلِّمَ، عُلِمْ... فالتغييرات هي عبارة عن حركات مست مواضع (الفاء، اللام، والعين) وكذلك بالنسبة للأحرف الأخرى وأيضا ربطها بالسابقة في الفعل المضارع أو اللاحقة في قولنا: تحفظون، ستجتمعان...، أو الضمير الذي يتصل بالفعل الماضي نحو: سمعت، ذهبتما...

أما براجشتراسر منهجه كان قريب من بروكلمان إلا في مواضع أبنية الفعل فهو يدرسها حسب معانيها واللواصق التي تكون بها، وتصريفه يكون حسب الأزمنة المتعارف عليها (ماضي مضارع وأمر).

يقول بروكلمان في أداة التعريف: «"لم تكن اللغة السامية، تملك في الأصل، رمزا أو أداة معينة للتعريف. وقد حافظت الآشورية والحبشية، على ذلك الأمر... وفيما عدا ذلك، يوجد للتعريف في العربية: الأداة (ال)، وفي العبرية الأداة (ha) اللتان توضعان في أول المعرف، وفي العربية الجنوبية الأداة (n) وفي الآرامية الأداة (à) اللتان توضعان في آخر المعرف، غير أنه في السريانية، فقدت (à) قوتها التعريفية ...

يمكن تصنيف اللغات السامية بحسب موقع أداة التعريف ونوعها:

بالبداية العبرية (ها)

العربية (ال)

بالنهاية السبئية (ن)

الآرامية (ها)»[27] تشترك اللغة العربية مع اللغات السامية في أداة التعريف غير أنها في بعض اللغات تكون في أول الكلمة وفي أخرى تكون في آخرها كما لاحظ بروكلمان عدم التقاء الساكنين في العربية يقول: «تحاشيا لالتقاء الساكنين في أوّل الكلمة بدأت بمتحرك مكسور (ممثّلاً في همزة الوصل) أي بمكسور ثم ساكن فساكن.

– أما العبريّة ففصلت بين الساكنين بإقحام كسرة قصيرة بينهما، فأصبحت البداية: ساكن فمكسور فساكن. انظر مثلاً فاء المضارع المسند إلى ياء المخاطبة وواو الجماعة فيما يأتي:

תִּשְׁכְּנִי "تسكنين" ولفظها «تِشْكِني»

תִּשְׁכְּנוּ "تسكنون" ولفظها "تِشْكِنو

"إنّ فاء الفعل هي الشين الساكنة (שְׁ) وقد سبقها تاء المضارعة (תִּ) فلما حذفت تاء المضارعة، وبُنِي الفعل للأمر متصلا بهذين الضميرين أصبحت الشين الساكنة في أول الكلمة. ولما كان البدء بساكن لا يصحّ التزموا بكسرها هكذا:

שִׁכְנִי و שִׁכְנוּ (شِخْني وشِخْنو) ومعناهما: اسكني، واسكنوا»[28] تتشارك العربية مع اللغة العبرية في عدم التقاء الساكنين في أو الكلمة كما رأينا في المثالين السابقين.

لو نظرنا في تقسيم الفعل في كتاب «"كاسباريه Caspari" وعنوانه "النحو العربي" Arabisclie Granmatik (الطبعة الرابعة 1876) لوجدنا أنه قد تأثّر تأثرا كبيرا في مضمونه ومصطلحه وطريقة معالجته بالدرس اللغوي العربيّ. ففي حديثه عن الفعل مثلا قسمه على طريقة النحاة العرب إلى ثلاثيّ مجرد ورباعي مجرد، ووَزَن المجرّد والمزيد على موازين الصرفيين العرب.. فَعل، فَعّل، فاعل ... وأشار إلى أن الحرف الأول فاء الفعل، والثاني عينه، والثالث لامه، ثم تحدث عن وزن الثلاثي المجرد: فَعَل، فَعُل، فَعِلَ، ثم تناول معاني الزيادات من مبالغة، وتكثير، ومشاركة، وتعدية، ومطاوعة... إلى غير ذلك، مع استخدام المصطلح

العربي في كل تفصيل، وبَذْل الجهد لاختيار المصطلح اللاتيني المقابل أو الاجتهاد في ترجمته ترجمة حرفية»[29] يمكن القول أن كاسباريه تأثر بتقسيم وتصنيف النحاة العرب القدماء غير أنه اجتهد في اختيار المصطلح العربي وما يقابله في اللغة اللاتينية أثناء عملية المقارنة وبهذا يكون مزج بين الرؤية الغربية والعربية في معالجة اللغة العربية.

نقد المنهج المقارن:

رغم ما حمل المنهج المقارن من ايجابيات في خدمة الدرس اللغوي إلا أنّه لا يخلو من عيوب وسلبيات خاصة فيما تعلق بالجانب الديني الإسلامي ومثال ذلك:

«دراسة الظواهر الإسلامية الرئيسية كالنص القرآني، فمن نماذج مطابقة النص القرآني مع نصوص الديانات الأخرى نجد (بلاشير) يتناول في كتابه "معضلة محمد" مصدر القصص القرآني، حيث يرى أنه مما ألفت انتباه المستشرقين ذلك التشابه الواقع بين القصص القرآني وبين القصص اليهودي المسيحي، وقد كان التأثير المسيحي واضحا في السور المكية الأولى، وذلك من خلال مقارنة هذه السور ببعض أناجيل تلك الفترة»[30] فالنتيجة التي خرج بها بلاشير لم تكن إمكانية أن يكون الكتابين من أصل واحد نتيجة التشابه القائم بين الديانتين، بل أرجع ذلك إلى عملية التأثير والتأثر، ربما سبب ذلك: جهل بلاشير بما جاء به النبيان موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم وأيضا مضمون الكتابين اللذان أُنزل عليهما، وكذلك: «مشكلات الاعتماد على الكتابة دون النطق في وصف اللغات القديمة حيث واجه العلماء الذين ساروا على هذا المنهج عقبة كبيرة، تمثلت في تعاملهم مع نصوص قديمة في شكلها المكتوب لا المنطوق، وقد زاد من صعوبة هذه العقبة أن كثيرا من اللغات قد اندثرت من واقع الاستعمال اللغوي، ولذا كان من الصعب معرفة كيف كان ينطق العرب الجنوبيون كلمة مكتوبة بالحروف الصامتة نحو: (كتب)، فهل هي كَتَب أم كُتِب أم كَاتب...، ولذا كان العلماء يستعينون في حل هذه المشكلة بالتركيز على دراسة هذه اللغات في ضوء معرفتهم بالعربية ولهجاتها، بوصفها حية منطوقة، فضلا على قِدمها»[31]، إنّ المنهج المقارن «يتطلب معرفة كاملة بكل لغة من اللغات السامية، وهو أمر لم يتح إلا لقلة من الدارسين»[32] وعقد (فيشر) مقارنة في أوجه

الإعراب ومبادئ النحو بين العرب واليونان ليثبت التشابه القائم بين اللغتين: «مصطلحات من سماهم الخوارزمي: "فلاسفة يونان" وهي مصطلحات صوتيّة وما جاء عليه النظام الصوتي للنحو اليوناني، ثم يُعَلّق على قول الخوارزمي على لسان فلاسفة يونان باعتبار الرفع أو الضم، واوا ناقصة، والكسر وأخواته، ياء ناقصة، والفتح وأخواته، ألفا ناقصة، بقوله: "وهذا يعني أن هؤلاء العلماء يميزون في مجال الحركات بين الأصوات الممدودة والأصوات القصيرة ... وينطبق ما يعلمنا به هذا النص تماما على النظام الصوتي للنحو اليوناني، حيث يفرق في مجال الحركات بين الصوت الممدود والصوت الناقص أو القصير"»[33] من خلال هذه المقارنة يتضح أنّ فلاسفة اليونان يعتبرون الرفع واوا، الكسرى وأخواتها ياء ناقصة الفتحة وأخواتها ألفا ناقصة، وهم أيضا يفرقون بين الأصوات الممدودة والأصوات القصيرة شأنهم شأن العرب في ذلك، فخرج بنتيجة مفادها أن العرب تأثروا بالنحو اليوناني.

خاتمة:

من جملة النتائج التي توصلنا إليها نذكر:

1- ساهم الاستشراق الألماني في تتبع الدرس اللغوي العربي نحوا وصرافا، فعلا واسما إلى إظهار التغيرات التي طرأت على الكلمات المفردة والحروف، كما كان للمقارنات التي عُقدت بين اللغات السامية في مجال اللغة أثر كبير في تحديد أهم التحولات والمتشابهات بين هذه اللغات.

2- تميز المستشرقون الألمان بالتطبيق العلمي للمنهج المقارن والتقسيم المنظم للفروع اللغوية، تشبها بتصنيف النحاة العرب القدماء أحيانا ومخالفين التصنيف أحيانا أخرى.

3- كان العلماء يستعينون في حل بعض المشكلات في اللغات السامية مع مقارنتها باللغة العربية، لأنّها لغة حية منطوقة، فضلا على قِدمها.

4- المدرسة الاستشراقية الألمانية عُرفت بغزارة مؤلفاتها في ميدان دراسة اللغة العربية وبموضوعيتها في الطرح وهي لا تزال غنية بالبحوث التي يمكن الإفادة منها مستقبلا.

5- المنهج المقارن مهم في الدراسات اللغوية لما يمكن أن يصل إليه الباحث من نتائج تزيل اللبس والغموض إذا ما عُولجت اللغة مع لغات أخرى مشابهة لها، لكنّ لا يصلح تطبيقه على القرآن الكريم لأنّه كلام الله المنزل ولا يجوز مقارنته بما تواضع عليه البشر.

6- اللغة العربية ثرية بالمفردات والصيغ والتراكيب... هذا ما جعل غير العربي يسلط الضوء عليها دراسة وبحثا وإعجابا بها.

الهوامش والإحالات

(1)– محمد عوني عبد الرؤوف، جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، تقديم إيمان السعيد جلال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2004م، ص 03.

(2)– عبد المجيد دياب، تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، دار المعارف، القاهرة، 1993، ص 178.

(3)– المرجع نفسه، ص 196.

(4)– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية بحث في تاريخ الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، دار حنين، عمان، ط 2، 1412هـ/ 1992م، ص 60.

(5)– محمد عوني عبد الرؤوف، جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، ص3.

(6)– محمد فاروق النبهان، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، الرباط، المملكة المغربية 1433هـ/ 2012م، ص 11.

(7)– محمد قدور تاج، الاستشراق ماهيته فلسفته مناهجه، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، طبعة أولى، عمان 2014م –1435هـ، ص 17.

(8)– المرجع نفسه،ص 51.

(9)– محمد عوني عبد الرؤوف، جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، ص4.

(10)– سماء زكي المحاسني، دراسات في المخطوطات العربية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1420هـ 1999م، ص 66.

(11)– محمد فاروق النبهان، الاستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، ص 30.

(12)– محمد عوني عبد الرؤوف، جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، ص 28– 29.

(13)– المرجع نفسه، ص207.

(14)– عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، ط3، الكويت، 1977م، ص 2.

(15)– أمال سيسي، مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث اللغوية، مذكرة ماجيستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سعد دحلب، البليدة، مارس 2012، ص 34.

(16)– محمد قدور تاج، الاستشراق ماهيته فلسفته مناهجه، ص 178.

(17)– المرجع نفسه، ص 32

(18)– أمال سيسي، مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث اللغوية، ص 34.

(19)– ياسر محمد البستنجي، التراكيب المشتركة بين العربية واللغات السامية في القرآن الكريم، رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية، قسم اللغة العربية كلية الدراسات العليا، جامعة مؤتة 2017م، ص 24.

(20)– ياسر محمد البستنجي، التراكيب المشتركة بين العربية واللغات السامية في القرآن الكريم، ص26.

(21)– أمال سيسي، مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث اللغوية، ص 35.

(22)– إسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1996م، ص 25.

(23)– المرجع نفسه، ص 102– 103.

(24)– المرجع نفسه، ص 236– 237.

(25)– المرجع نفسه، ص 172.

(26)– عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، جزء من متطلبات درجة الماجيستير في اللغة العربية وأدابها، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ص 1431هـ 2010م، ص 143.

(27)– عبدالحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص 249.

(28)– إسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، ص 179.

(29)– المرجع نفسه، ص 315.

(30)– محمد قدور تاج، الاستشراق ماهيته فلسفته مناهجه، ص 179.

(31)– أمال سيسي، مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث اللغوية، ص 36.

(32)– عبدالحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص 238.

(33)– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، دار حنين،عمان، ط2، 1992م، ص 70.